الفصل الثالث

الأزمة فى علم الاجتماع (١)

ظهر « علم الاجتماع الجديد » منذ عدة سنوات · ولكونه قد نشأ من اسهامات س · رايت ميلز C. Wright Mills أساسا ، فقد ارتبط من خلاله بمعتقدات وحركات اليسار الجديد فى نهاية حقبة الخمسينات وبداية حقبة الستينات · غير أنه مثلما نما اليسار بسرعة كبيرة وأستبدل بحركات اجتماعية مازالت أكثر جدة ، فقد حدث ذلك بالنسبة لعلم الاجتماع الجديد أيضا ، فقبل أن يتمكن من تأسيس نفسه بشكل ملائم كأسلوب متميز فى التفكير الاجتماعى ، نجده قد نحى جانبا بواسطة محاولات أكثر حداثه لمنح العلم توجيها منعشا · ومن ثم ففى أقل من عشر سنوات أصبح لدينا علم الاجتماع النقدى Critical Sociology وعلم الاجتماع الراديكالى Radical Sociology ، بحيث أن هذه التجديدات كانت أقل من حيث قوة ارتباطها بالالتزامات السياسية من الاثنوميثودولوجى ethnomethodology والنزعة البنائية ناهيك structurlasm عن حركة تحرير علم الاجتماع التى قد تكون أسلوبا للشعور أكثر منها أسلوبا للتفكير · والآن يقدم لنا ألفن جولدنر Alvin Gouldner تحولا آخر فى شكل علم الاجتماع التأملى reflexive sociology أو عالم الاجتماع الذى يتأمل مولده(٢) ·

ويمكن اعتبار هذا التكاثر والتتابع السريع للمذاهب بسهولة ، اشارة

---

(١) Reprinted, with minor rivisions, from New York Review of Books XVI (4) (11 March 1971).

(٢) Alvin Gouldner, **The Coming Crisis of Western Sociology** (New York, 1970).

لأزمة عقلية ، تصاحب أزمة فى الحياة الاجتماعية أو تكشف عن نفسها فى الحركات المتنوعة للاحتجاج والمعارضة ، وفى التمردات المتفرقة · وقد شخص نورمان برنباوم Norman Birnbaum هذا الموقف فى مقالة له عن الأزمة فى علم الاجتماع الماركسى بقوله :

« تقع الأزمة النظرية أو المذهبية فى النسق الفكرى حينما تتوفر أى من مجموعتى الظروف المجردة · حيث تستنفد امكانيات النمو الداخلى للنسق نفسها فى احدى الحالات وتصبح مقولات النسق عاجزه عن التحول، وتصبح المناقشة التى أسسها النسق مدرسية Scholastic بالمعنى المزدرى لهذا المصطلح · وفى الحالة الأخرى تتغير الحقائق التى أدركها النسق عن صورتها الأصلية بقدر كبير حتى تصبح مقولات النسق عاجزة عن مواجهة الظروف الجديدة · ومن الواضح أن مجموعتى الشروط هاتين وقعتا غالبا بصورة متزامنة ، وبخاصة بالنسبة للانساق التى تهتم بالحركة التاريخية للمجتمع »(٣) ·

ولقد خبر علم الاجتماع كثيراً أزمات من هذا النوع · وبالنظر الى تاريخه الحديث فقط ، يتضح لنا كيف أن علم الاجتماع التقدمى Progressive Sociology الذى ساد حقبه الثلاثينات (والذى نمثل له باسهامات روبرت لينـد Robert Lynd وبعض الكتاب الماركسيين) قد فقد معظم كفاءته وأهميته عند نهاية الأزمة الاقتصادية واندلاع الحرب ، واعادة البناء فيما بعد الحرب ، حيث خضع الحوار السياسى ، والسياسة العامة فى معظم الأقطار الغربية لأفكار النمو الاقتصادى فى المجال الداخلى والصراع بين الديموقراطية والنزعة الشمولية totalitarianism فى المجال العالمى · وبالمثل بدأ علم الاجتماع المحافظ conservative بعد الحرب (من خلال كتاب مثل بارسونز Parsons ، لبست Lipset ، بل Bell ، شيلز Shills وأرون Aron ، حيث ظهر الى حد كبير من خلال هذه الظروف المتغيرة ،

---

(٣) In Hans Peter Dreitzel (ed.), **Recent Sociology**, No. 1. (New York, 1969).

يفقد قدرته على تفسير الوقائع الاجتماعية بطريقة مقنعة ، حينما ظهرت الحركات السياسية والثقافية الجديدة وتحدت أساليب الحياة المستقرة أو هجرتها فى كثير من المجتمعات الصناعية ٠

وقد أظهرت حالة الفوضى التى عشنا خلالها ، على الأقل فى الفترة من ١٩٥٦ ــ ١٩٦٨ غـرابة أنه كان ينبغى أن يكتب جولدنر Gouldner عن الأزمة المقبله فى علم الاجتماع ٠ وتفترض أحد أساليب تفسير فكرة أن الأزمة تقع فى المستقبل أن جولدنر يشير الى فترة سوف تواجه فيها المدارس القائمـــة فى علم الاجتماع بنظرية محكمة بديلة عن المجتمع ، مستندة (كمـــا يفترض) الى بنـــاء جديد من العواطف ومجموعة من (الافتراضات الأساسية) الجديدة(٤) ٠ ويمكن أن يعتبر ظهور هـــذه النظرية الى حد كبير حلا للأزمة العقلية أكثر من كونه تعجيـــلا لها ٠ وحينئذ فقد توجه أفكار جديدة البحث السوسيولوجى(٥) ٠ وقد يتأسس جديدة حول القضايا الهامة ، وقد نغفل بحماس بعض المناقشـــات التى ما تزال مستعرة ــ حول التغير والاستقرار الاجتماعى أو حول الصراع والاتفاق ــ أو تودع متحف التاريخ ٠

ويعتبر وصف جولدنر للحالة الراهنة كحالة تستمر فيها مدرستان فكريتان قائمتين ــ الماركســـية والوظيفيـــة ــ فى السيطرة على النظرية الاجتماعية وعلى وشك أن يتم تحديهما ، من العناصر الأساسية لتصوره عن الأزمة القادمة ٠ اذ كرس جزءا كبيرا من مؤلفه لفحص نقدى للنسق النظرى لتالكوت بارسونز على أســـاس أنه يمكن معادلة علم الاجتماع الأمريكى بالاتجاه الوظيفى أو بالتالى بنظرية بارسونز ٠ ويبدو أن الاهتمام

---

(٤) Domain assumption

(٥) يبدو أن الافتراضات الأساسية تتطابق بدقة مع ما يسميه كوجن Kuhn وآخرون (النموذج التوجيهى Paradigm أعنى مجموعة القيم والمعتقدات التى يشترك فيهـا أعضاء المجتمع العلمى والتى تحـدد القضايا التى تعتبر قضايا علمية ، والمداخل التى يجب تبنيها فى محـاولة التصـدى لها ٠ ومن الواضح أن (الافتراضات الأساسية) أو (النمـاذج التوجيهيـة) بهـــذا المعنى ترتبـط ببناء العواطف structure of sentiments او تحتويه ٠

الذى منحه لهذه النظرية مبالغا فيه ، أولا لأنه لم يتقدم فى الحقيقة أبعد من الانتقادات التى وجهت اليها منذ وقت مضى وحتى الآن · وثانيا لأنه من المشكوك فيه للغاية (وهو ما لم يوضحه جولدنر بأى أسلوب) أن يكون الاتجاه الوظيفى ، وبخاصة تصور بارسونز له ، قد تمتع بهـــذه المكانة المسيطرة خلال العقد السابق حتى فى علم الاجتماع الأمريكى ، بينما لم يحقق فى أوربا أى تفوق على الاطلاق ·

وقد تعرضت الماركسية للمنافسة ، كنسق سوسيولوجى منافس ، بشكل ناقص وبايجاز شديد · وصور تطورها بأسلوب مضلل الى حد ما ، ويسلم جولدنر بأن الماركسية كانت منذ البداية ، تيارا أساسيا مضادا داخـــل علم الاجتماع الغربى ، غير أنه لم يفحص الخلافات النظرية التى ولدهـــا وما زال يولدها هذا التناقض ، وبدلا من ذلك وصل الى نتيجة أن الماركسية والوظيفية اللذين يواجهان كل منهما الآخر ، والمتميزين جغرافيـــا على النطاق العالمى ـ فأحدهما مضمن فى علم الاجتماع السوفيتى ، بينمـــا الآخر فى علم الاجتماع الأمريكى ـ فى صراع يلطف بالاستعارة والتكيف المتبادل فقط ·

وقد يكون لذلك معنى سياسى محدود ، فباعادة صياغة ماركس ، يمكن القول أن الأفكار الحاكمة فى العالم هى أفكار القوى الحاكمة ، حيث تواجه القوى العظمى كل منها الأخرى أيديولوجيا مسلحة بعلوم اجتماع قوية · غير أن هذه الحقيقة ارتبطت بطريقة معقدة وغير مباشرة فقط بحالة التفكير السوسيولوجى · ولكى يؤسس جولدنر مقابلته الدقيقة بين علم الاجتماع الغربى وغير الغربى ، فان اعتباره بارسونز المعبر الدقيق عن علم الاجتماع الغربى ، فرض عليـــه أن يوحـــد الماركسية مع الماركسية السوفيتية لكى يقدمها كنظرية موحدة متماسكة ومسيطرة · ولكى يتجاهل الأزمة المستديمة فى الفكر الماركسى · ونحتاج لمواجهة هذه النظره أن نلاحظ أن الفكر الماركسى قد ازدهر خارج الاتحاد السوفيتى أساسا ، فى فرنسا ، المانيا ، ايطاليا ، يوغوسلافيا وربما الصين ، حيث اتخذ أشكالا متنوعة ومعدله الى حد كبير ومجربه · وقد أثر الحوار العقلى المتعلق

بطبيعة الماركسية كنظرية فى المجتمع ، على الماركسية كعقيدة سياسية · وحتى فى الاتحاد السوفيتى ، وبوضوح كامل فى الأقطار الأخرى لأوربا الشرقية · وفضلا عن ذلك ، نجد أن للأفكار الماركسية (مع أنها الماركسية غير السوفيتية) تأثيرا هائلا الآن على علم الاجتماع الغربى أكثر مما كان لها منذ عقود كثيرة · وكما لاحظ درايتزل فى مقـــدمة كتابه أنه قد ظهر « ··· استعداد جديد للاستفادة من وجهة النظر الماركسية ، ليس بمعنى قبول النظرية الماركسية فى المجتمع ، ولكن بمعنى الاستفادة من الأفكار العديدة ، التى ترجع جذورها الى الماركسية ، مع تفسيرها بشكل مختلف وذلك من أجل اثارة قضايا ، أو لنقد المداخل الأخرى » ·

وفضلا عن ذلك ، فهناك معنى آخر للاقتراب من الأزمة ، وهو الاقتراب الذى يطرح للبحث علم الاجتماع ذاته ، وليس شكلا معينا · وكما لاحظ روبرت نسبت Robert Nisbet فى مؤلفـــه التفكير السوسيولوجى The Sociological Tradition أن علم الاجتمـــاع قـد تشـكل فى أزمة انتقال الأقطار الأوربية الى المجتمع الصناعى · اذ تشكلت مجموعة أفكاره وقضاياه المتميزة فى الفترة ابتداء من ١٨٣٠ وحتى نهاية القرن التاسع عشر · حينما كانت المجتمعات الحضرية ، والديموقراطية والصـــناعية ، والبيروقراطية ، والعلمانية التى نعيش فيها ، فى حالة تخلق · وقد يتضح كما يذهب نسبت أننا نستمر فى رؤية العالم الاجتماعى من خلال توسط هـــذه الأفكار أو من وجهـــة النظر هـــذه ، تبدو التغيرات فى الفكر السوسيولوجى بين ١٩٣٠ ونهاية ١٩٥٠ كتنوعات حول ذات الموضوع · ويعتبر علم اجتماع الثلاثينات ، وبخاصة شكله الماركسى مشتقا ، حيث استفاد من الأفكار التقليدية ، غالبا وبشكل فج تحت تأثير الستالينية ، ومن ثم فلم ينتج فكرا أصيلا كذلك الذى ظهر فى بداية القرن ، فى أوج الحركة الثورية الأوربيـــة فى كتابات لنين Lenin ، روزا لوكسمبرج Rosa Luxemburg ، لوكـــاتش Lukacs ، جرامســـكى Gramsci والمـــاركسين النمساويين Astro - Marxists · وبنفس القـــدر كان علم الاجتماع المحافظ الذى تبعه مشتقا ، حيث يعتبر النسق النظرى لتالكوت بارسونز أحد مظاهره ، حيث هو ، الى حد بعيد ، عبارة عن جمع كبير لأكثر

العناصر محافظة فى تفكير علمـــاء الاجتماع الكلاسيكين ، بشـــكل فج ومدرسى ، اذ نجده يؤكد مثلا على نماذج الفعل الاجتماعى عند ماكس فيبر ، وتمييزه للنظام الرأســمالى بدلا من التأكيد على نظريته فى التغير الاجتماعى ، واهتم أيضا بمفهوم باريتو عن التوازن الاجتماعى بينما هو قد أغفل ماركس عن قصد ٠

وقد فرض التحول الشامل والسريع للبناء الاجتماعى والاقتصادى الذى وقع فى الأقطار الصناعية منذ الحرب ، وحركات المعارضة السياسية والثقافية التى ظهرت كنتيجة لها ، تساؤلا يتعلق بما اذا كنا نعيش تغيرا هائلا من أحد أشكال المجتمع البشرى الى آخر يمكن مقارنته من حيث مداه وأهميته بالانتقال الأول من المجتمع الزراعى الى الصناعى ٠ ويبدو أن امكانية هذا التغير الأساسى كانت كامنة وراء معظم التساؤلات الذاتية الحديثة بين علماء الاجتماع ٠ فقد أشار جولدنر اليه حينما كتب عن بناء العواطف المتغير ، وبخاصة لدى جيل الشباب ، ومتضمنات ذلك ، وقد ناقش رينارد بندكس Reinhard Bendix هـــذه الظاهرة من جانب مختلف فى مواضـــع عديدة من مجموعة مقالاته الأخيرة(٦) ٠ ويوافق بندكس أن التوجيه العام لعلم الاجتماع قد تأثر بقوة بتيارات الفكر والشعور السائدة فى المجتمع ، وهو يقتبس موافقا ملاحظة ماكس فيبر : « فى وقت ما تتغير وجهات النظر ، حيث يتشكك البشر فى وجهات النظر التى اتبعوها بلا تفكير ، ويصبح الطريق مفقودا فى قلب العتمة ، فقد خبا ضوء القضايا الثقافية الهامة ، وحينئذ يستعد العلم أيضا لتغيير وجهة نظره وأدواته التصورية لكى ينظر من علياء الفكر الى أسفل حيث مسار الأحداث » ٠

ومع ذلك ، فعلى خلاف فيبر يخشى بندكس الآن رفض العلم ذاته باعتباره يجسد العقل فى المجتمعات الحديثة ٠ ويجد هذا الخوف مبررا له فى العدائية الملحوظة التى ظهرت لدى بعض الجماعات الاجتماعية فى الأقطار الصناعية نحو التكنولوجيا ، وأيضا فى بعض الاتجاهات الحديثة

---

(٦) Reinhard Bendix, **Embattled Reason: Essays on social knowledge** (New York, 1970).

داخل علم الاجتماع ذاته ، الذى يرفض الآن أن يكون هدفه أن يصبح علما وضعيا أو امبيريقيا بعد أن كان يرى فى (طبيعته العلمية) فضيلة • غير أن هذا الخوف كان مبالغ فيه أيضا • اذ انتهت الرومانسية ذاتهـــا فى التفكير والنظريات ــ حيث شكلت موجة جديدة من الخيـــال والشعور ــ وبدت الحركات الثقافية المعاصرة أكثر ميلا لمنح العلم توجيها جديدا بدلا من التخلى عنه كلية • وفى الحقيقة ، يمكن فهم هذه الحركات بقدر ما ، بمساعدة المفاهيم السوسيولوجية القائمة • وقد تنبأ ماكس فيبر (بتحرر متنام للعـــالم من الوهم) فى المجتمعات الغربية كنتيجة لاطراد التنظيم البيروقراطى للحيـــاة الاجتماعية وترشيدها • ويمكن النظر الى حركات التمرد والانسحاب التى نألفها اليـــوم كمحاولات لاستعادة (رومانسية الحيـــــاة poetry of life ، فى المجتمعات الصناعية الدقيقة التنظيم ، عن طـــريق احيـــاء نماذج للعلاقات الاجتماعية تغلب عليها التلقائية ، والاستغراق ، والتعاطف الشخصى •

وبرغم ذلك فما زال من الممكن لبعض التأليفات العقلية الجديدة أن تبرهن على أنها سوف تكون أكثر كفاءة على تفسير هذه التغيرات • ومن ثم فسوف يعاد رسم خريطة المعرفة مرة أخرى • وقد افترض مجلد مقالات رنســـــمان W. G. Runciman (٧)شيئـــا من هـــذا القبيل حتى لو بدأ منذ الوهلة الأولى مبتعدا عن أى اهتمام بالأزمة ، عقلية كانت أم اجتماعية، لكونه بالأساس نتاجا لاستطلاع عقلى محايد بدرجة كاملة • ومما لا شك فيه ، أعتقد أن رغبة رنسمان فى وضع علم الاجتماع فى مكانه ، قد تأثرت بمؤثرين خارجيين • يتمثل أحدهما فى حالة الفوضى الحالية المتعلقـــة بالموضوع ، حيث لم يجد له منهجا محددا أو مضمونا متميزا ، وقد ناقش رنسمان ذلك بايجاز • ويتمثل المؤثر الآخر فيما يبدو لى ، فى حقيقة أن علم الاجتماع ، برغم هذا التنوع والتناقض الداخلى ، قد اكتسب أهمية عقلية مرموقه للغاية فى السنوات الأخيرة ، ليس أقل من كونه أحـــد المصـــادر

---

(٧) W. G. Runciman, Sociology in its place and other essays (Cambridge, 1970).

الرئيسية للنقد الاجتماعى · وفى بعض الاعتبارات يبدو أن علم الاجتماع الآن يمثل المكانة التى كان يحتلها الاقتصاد السياسى من قبل ، باعتباره العلم الاجتماعى التى تحـال اليه الموضوعات الهـامة للعصر لتحليلها وتفسيرها ·

وتستمر مناقشة رنسمان ضد الوجود المستقل لعلم الاجتماع كعلم للمجتمع كما يلى ، فعلم الاجتماع ، كالتاريخ ، والأنثروبولوجيا عاجز عن تقديم قوانين عامة ، وينشأ هذا العجز من حقيقة أنه لا توجد ولا يمكن أن توجد قوانين عن الانساق الاجتماعية على هذا النحو · ويعتبر علم النفس هو العلم الحقيقى للانسان الذى يعتمد عليه علم الاجتماع · ويمكن اعتبار علم الاجتماع ، على نحو أكثر ملاءمة (كما يذهب فرويد أيضـا) كعلم نفس تطبيقى ، برغم أن رنسمان قد أضـاف أنه علم للنفس مضـافا اليه التاريخ الاجتماعى ومن ناحية أخرى ، فبرغم اعتماد العلـوم الاجتماعية المتخصصة كالاقتصاد ، والسكان ، وعلم السياسة على علم النفس أيضا ، فان بامكانها تأسيس قوانين غير دقيقة (لأنها تتناول نطاقا محدودا من الظواهر) ومن ثم فهى تحتل مكانة متوسطة فى تدرج العلوم الاجتماعية ، بين علم النفس وعلم الاجتماع ·

وبالنظر الى هذه المناقشة فان علينا قبل كل شىء أن ننحى جانبا السؤال العام والمتعلق بمدى امكانية أو كفاءة أى نوع من التفسير السببى للفعل البشرى · حيث أنه اذا لم يكن ذلك ممكنا ـ اذا تطلب الأمر نوعـا آخـر من المعرفة أو التفسير ـ فان عجز علم الاجتماع حينئذ عن تقديم قوانين عامة سوف لا يميزه عن أى من العلوم الانسـانية الأخرى · وبدون الدخول فى هذه القضية ، فانه يمكن القول ، حسب رنسمان ، بأن على علم النفس أن يوفر أساس البناء التفسيرى بكاملة ، اذا كان قد قدم أيا من القوانين العامة ، أو بعضا منها (كما يسلم رنسمان بذلك) · وفى مثل هذا الموقف ، من الصعب أن نثق بأن اللجوء الى علم النفس يمكن أن يقود الى تفسيرات دقيقة ومقنعة للسلوك الاجتمـاعى · وحينئـذ ، فبالاسـتعانة بعبـارة الفرد مارشـال Alfred Marshall، حينما كان مهتما بامكانية ادماج الاقتصاد فى العلم الاجتماعى الأكثر عمومية ، قد

نقـــرر « أنه بالنسبة للوقت الحـــاضر فاننا ينبغى أن ننجز ما نستطيعه بمصادرنا الحالية » ٠

ويدعم رنسمان وجهة نظره بعدم امكانية وجـود قوانين عامة عن الأنساق الاجتماعية بحجتين : حيث تشير الأولى الى امكانيـــة ارجاع التفسيرات المتعلقـــة بفاعلية الأنســـاق الاجتماعية الى التفسيرات السيكلوجية ٠

« فلكى نفهم أصول الأنساق الاجتماعية ، وطريقة عملها ، فان علينا أن نفهم أفعال وأفكار البشر ٠ وبصورة مؤكدة ، ســـوف تعتمد هـــذه التفسيرات بدرجة كبيرة على خصائص الأنســاق الاجتماعية التى يعتبر عضوا فيها ٠٠٠ غير أننا من ناحية أخرى ، اذا تناولنا خصائص الأنساق الاجتماعية كمتغير مستقل ، حينما نكون بصـــدد الحديث عن خصائص الأنساق الاجتماعية ٠٠٠ فاننا نتحدث عما يبدو أن البشر الأفراد يفكرون فيه أو يقولونه أو يفعلونه » ٠

وما لم يوضحه رنسمان هو كيفية محاولة هذا الاسناد أو اجرائه فى حالات محـــددة ، وبالطبع لم يكن رنسمان قادرا على تحديد صـــلة التفسيرات السوسيولوجية بالقوانين السيكلوجية ، لأن الأخيرة لم تكن متيسرة ٠ ويمكن توضيح الصعاب التى تثيرها هـــذه الاسنادات ببعض الأمثلة ٠ اذ ناقش زيمل Simmel فى مقال له عن (عدد أعضاء الجماعة كمحدد لشكلها السوسيولوجى) بعض خصائص الأنساق الاجتماعية التى تبدو معتمدة بشكل محدد على حجم هذه الأنساق ٠ وفى دراسة أخرى عن الصراع الاجتماعى نجده قد صاغ بعض القضايا العـــامة المتعلقة بآثار الصراع على بناء الجماعات ٠ ومن الصعب تبين كيف يمكن تحويل قضايا من هذا النوع الى قضايا سيكلوجية ٠

وتتمثل الحجة الثانية التى يطرحها رنسمان لتوضيح عـــدم تيسر الوصول الى (قوانين عن الأنســـاق الاجتماعية) فى أن عدد المتغيرات التى ينبغى أخذها فى الاعتبار كبير للغاية ، وهنا نجده يتبع مناقشـــة

جون ستيوارت مل J. S. Mill الشهيرة التى تؤكد على « أن أسلوب انتاج كل الظواهر الاجتماعية يعتبر أحد الحـــالات الهـــامة لامتزاج القوانين الاجتماعية » • وبرغم التوسع الكبير فى الأخذ بهذا القول ، فاننا يمكننا القول بأن أحد الأسباب الرئيسية للصعوبة الهائلة التى تواجهها العلوم الانسانية ، بما فيهـــا علم النفس فيما يتعلق بصياغة أية تعميمات ذات قيمة ، يتمثل فى أن عدد المتغيرات التى عليها أن تتناولها كبير للغاية • وفى هذا الصدد ، فليس من الواضح • وجود خلاف أســـاسى بين علم النفـس ـ كعلم للأنســاق العقليــة ـ وعلم الاجتمــاع ، كعلم للأنســاق الاجتماعية •

ويمكن توضيح عدم حسم براهين رنسمان بأساليب أخرى • ففى المحل الأول نجده متسق كلية فى معالجته للنظرية السوسيولوجية ، فبينما هو يدعى فى مقالته الرئيسية بعدم امكانية وجود نظريات سوسيولوجية ، نجده يفترض فى موضع آخر وجود مثل هذه النظريات ، وأن بعضهـــا أفضل من البعض الآخر • ولذلك فهو يختتم مؤلفه بمقـــال عن البنـائية Structuralism بالقول : « انه لا يجب الادعاء بأنها تشكل نموذجا توجيهيا شاملا ، متماسكا ، وجـديدا للنظرية السوسيولوجية والأنثروبولوجية » • وفى مقـال له عن (الطبقة والمكانة والقوة Class, Status and power) تجده يكتب : « أن توقع نظرية عن التدرج الاجتماعى يعتبر بالطبـــع مسألة بعيدة ، فاذا كانت هناك امكانية لذلك ، فانها لابد أن تنتج منطقيا عن صدق التمييز الثلاثى الأبعاد ، والذى يعنى أن أية نظرية عامة تعتبر فعالة بالنظر اليه » • ولم يصرح رنسمان فى أى مكان أن البحث عن هذه النظرية أو أى نموذج توجيهى يعتبر جهدا ضائعا أو غير مشروع •

وثانيا ، يبدو أن ميله (فى المقالة الرئيسية) نحو العلوم الاجتماعية المتخصصة ، وعدم استساغته لعلم الاجتماع ، كان بالنظر الى قدرتها على تأسيس القوانين ، قد نشأ فى جانب منه عن نوع من سوء الفهم • فهو حينما يكتب مثلا عن علماء السكان الذين يؤسسون التعميمات عن معدلات المواليد ، فانه يشير فى الحقيقة الى تعميمات سوسيولوجية تصل معدلات المواليد بظواهر اجتماعية أخرى (كالمركز الاجتماعى للمرأة ،) أو الأهمية النسبية للعائلة كوحدة انتاجية) وتفسرها بشكل مؤقت أو ناقص بالرجوع

الى خصائص النسق الاجتماعى ككل ، (أو بالتمييز ، مثلا ، بين المجتمعات الصناعية والزراعية) ٠

ويوجز رنسمان فى نهاية مقالته الرئيسية رأيه فى علم الاجتماع ، على نقيض حكمه على مكانته ، باعتبارات يمكن النظر اليها كتبرير لوجوده كعلم متميز ٠ ومرة ثانية ففى أعقاب تأكيده أنه لا يمكن أن يكون علما مستقلا نجده يقول « ٠٠ انه برغم فائدة الشروح التصويرية ، والتعميمات الوصفية والاكتشافات المحددة التى أنجزت عنوان هذا العلم »٠ فانه نظرا لغياب القوانين ذات الدلالة التى يمكن أن تقدمها أى من العلوم الانسانية الأخرى ، فان هذه الاكتشافات والتعميمات ، وبأسلوب أشمل نماذجه للبناء الاجتماعى ، هى بالتحديد التى جعلت علم الاجتماع علما هاما ، وهى التى ظلت ترسخ تأثيره على العلوم الاجتماعية المتخصصة على مدى مائة سنة خلت ٠

فاذا بدا علم الاجتماع الآن متجها نحو أزمة فليس ذلك لأنه قد فشل فى تأسيس قوانين ذات مستوى أعلى ، ولكن لأن كثيرا من تعميماته الوصفية ، ونماذجه وتفسيراته لم تعد كافية ، اما لأنها قد استنفدت قدرتها على تحقيق اكتشافات جديدة ، أو لأن الواقع الذى تنطبق عليه قد تغير الى حد كبير حتى أنها لم تعد تبدو ملائمة ٠ وقد قدم رنسمان فى مواضع عديدة من كتابه كثيرا من الأفكار الهامة فيما يتعلق بالعلاقة بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ ٠ ومن الواضح أنه يؤيد التقارب بينها ، كما يؤيد الرابطة القوية بينها وبين ما يسميه بالنظرية السيكلوجية الفعالة ، غير أنه لم يبتعد أكثر من ذلك لكى يحدد الشكل الذى ينبغى أن تتخذه النظرية التى تتأسس وفقا لهذه الأبعاد ، هذا الى جانب أنه لم يكن مهتما بمسألة الصلة التى ينبغى أن تكون بين هذه النظرية وبين الظواهر الاجتماعية والثقافية فى الوقت الحاضر ٠

وبرغم ذلك لا يختلف اسهام رنسمان فى هذا الصدد كثيرا عن اسهام بعض المفكرين الآخرين موضع الاهتمام فى هذه الدراسة ٠ فقد خصص ألفن جولدنر جزءا صغيرا للغاية من كتابه لمناقشة التطور المحتمل لعلم

الاجتماع فى المستقبل • اذ لم يكن علم الاجتماع التأملى Reflexive sosiology الذى وضع مخططه مشجعا • ذلك لأنه بدأ من ناحية وكأنه يكرر بشكل خافت علم اجتماع المثقفين الذى ساد فترة العشرينات لكارل مانهايم Karl Mannheim بدون أبعاده الفلسفية • فى حين أنه من ناحية أخرى يقدم بعض النصائح الأخلاقية التى ينبغى أن نقود حياة عالم الاجتماع واسهامه كسياسى راديكالى • ويتمثل الأمر الأكثر أهمية والذى أغفله عن قصد فى افتراض موضوعات جديدة للدراسة ومجموعة من الأفكار الجديدة الموجهة • ومن ثم فقد حقق فى النهاية عكس ما دافع عنه س • رايت ميلز فى بداية البعث الراديكالى ، فبدلا من تحويل المشكلات الشخصية الى قضايا عامة ، حول القضايا العامة الى مشكلات شخصية ، وذلك عن طريق نصيحته لعالم الاجتماع بأن يهتم ، عن أنانية ، بقضية العلاقة بين كونه عالما اجتماعيا وبين كونه شخصا ، وأن يهتم بطبيعة علاقته بعمله ، ولا أعتقد أن هذه الاهتمامات قد ساعدت على التحليل النقدى للمجتمع أو يمكن أن تساعد عليه ، وانما هى اشارة لانتكاسة عقلية أكثر من كونها علاجا •

ومن ناحية أخرى ، اهتم بندكس Bendix أساسا بالدفاع عن التقاليد ـ التقاليد الغربية المتعلقة بالعقل والعلم ـ ضد ـ ما اعتبره ـ موجات الانفعال العاطفى التى تهدد بالاطاحة بها • وفى رأيه « أن المسألة تتعلق بما اذا كان ممكنا فى ظل هذه الظروف أن يبقى الدافع للبحث ، والاعتقاد فى التقدم من خلال المعرفة ، قويا بدرجة كافية » • وبالاضافة الى ذلك فهو لم يحاول بجدية أن يكشف عن مسار جديد ، لتغيير وجهة نظر العلوم الاجتماعية ذاتها حتى تهتم بالمشكلات والادراكات الجديدة •

ونجد فى مجلد درايتزل Dreitzel فقط اشارة ما ، الاتجاهات جديدة • والى حد كبير تختلف المقالات التى جمعها فى هذا المؤلف من حيث الموضوع والمدخل عما كان سائدا منذ حقبة سابقة • فهى لا تهتم (بالديموقراطية المستقرة) ولكن بتجارب وامكانات (المشاركة

الديموقراطية) · وهى لا تهتم بالحراك والمكانة ولـكن بالعـلاقات بين الطبقات ، وظهور قوى أو طبقات جديدة كقوى للنضال السياسى · وهى لا تهتم أيضا بالنظم السياسية والسلوك الانتخابى وانمـا بظهور حركات الاحتجاج الاجتماعى · وتظهر المقالات ، كما أشار درايتزل ، استعدادا لأن تعتمد على الأفكار الماركسية ، وأيضا على تصور لعلم الاجتماع (كعلم للأزمة الاجتماعية ، لما كان على هذا النحو أصلا ·

وما زالت الموضوعات الجديدة بعيدة عن أن تتكامل لتشـكل نظرة عامة للتحول الاجتماعى المعاصر ، وبقى السؤال مطروحا عما اذا كان من الممكن تحقيق ذلك · وقد يعتبر تصـور (مجتمع ما بعد التصنيع) الذى حـددده ـ فى أحـد أشـكاله الان تورين Alain Touraine المحاولة الأكثر وعدا الى حد ما لتقديم اطار عام (وهى المحاولة التى عرض لها درايتزل Dreitzel بايجاز ، وان كانت برؤية نقدية) · أعنى تقديم فكرة ظهور شكل للمجتمع يساعد تقدم العلم فى اطاره على امكانية الغاء الندرة من مجال الحاجات الانسانية الأساسية ، ونقل العمل الصناعى من البشر الى الآلات ، ومن ثم تحويل النسق الطبقى وتغيير التوازن بين العمل ووقت الفراغ فى الحياة الاجتماعية ، غير أنه فى نفس الوقت المجتمع التى تزيد فيه المشكلات الناجمة عن التنظيم المركزى والبيروقراطى ، أو عن سيطرة النظرة التكنولوجية البحته ، والتى تؤدى الى ظهور أنواع جديدة للصراع الاجتماعى، أنذرت به فعلا ظهور حركة الطلاب· فاذا تم تطوير هذا التصور بفعالية ، فانه قد يحتل المكانه المحورية التى كانت تحتلها فكرة الرأسمالية الصناعية كنسق اجتماعى فى علم اجتماع القرن التاسع عشر · وقد يتبع ذلك بعث حقيقى للتفكير الاجتماعى فى أكثر أشكاله جدارة كنوع من التفكير المنظم فيما يتعلق باتجاهات التطور الاجتماعى فى المجتمعات الحاليـة ، وأيضا فيما يتعلق بالخيارات السياسية التى تطرحها ·

---

(٨) **The Post industrial society** (New York, 1971)
وقد أثيرت بعض الموضوعات المماثلة فى الفصل السادس لمؤلف Norman Birnbaum, The Crisis of industrial society (New York 1969).

حاشية

منذ نشرت هذه المقالة فى المرة الأولى أجاب ألفن جولدنر على بعض انتقادات مؤلفه (علم الاجتماع التأملى Reflexive Sociology بدون أن يدرك جوهر النقد ، اذ يؤكد أن موقفه الآن هو « ... انكل مجتمع عبارة عن حقيقة اجتماعية تتكون الى حد ما بواسطة النظرية الاجتماعية السائدة ، ومن ثم يمكن فصل نقد المجتمع عن نقد النظرية . وهذا بالتحديد افتراض ماركس أيضا ، كما يتضح من حقيقة أن نقده للمجتمع الحديث ، فى كتاب رأس المال Capital اتخذ أيضا عنوانا فرعيا (نقد الاقتصاد السياسى A Critique of political economy) الذى يعنى نقد النظرية الاقتصادية(٩) . غير أن ذلك لم يكن على الاطلاق وما كان جولدنر يناقشة فيما سبق حينما جعل تحول عالم الاجتماع ذاته ، والعلاقة بين كونه شخصا وبين عالم للاجتماع محور لتصوره عن علم الاجتماع التأملى(١٠) . وبرغم ذلك فقد أبتعد ماركس عن الانغماس فى هذا التفكير التأملى ، حيث شرع فى دراسة التطور الموضوعى للنظام الرأسمالى فى القرن التاسع عشر ، وبالمثل الأيويولوجيا الموضوعية للمجتمع الرأسمالى كما تكشف عن نفسها (فى التشيؤ اليومى للسلع) وفى نظريات الاقتصاد السياسى الكلاسيكى رفيعة المستوى . ويعتبر جهد كارل ماركس لتأسيس نظرية واقعية ودقيقة عن المجتمع الحديث على طرف نقيض لذاتية جولدنر الرومانسية التى ترفض كلا من جوهر ومنهج النظرية السوسيولوجية باعتبارها غير هامة ، وتتركنا مع مجرد (تصورات) شخصية(١١) .

---

(٩) Alvin Gouldner, For Sociology : Renwal and Critique in sociology today (London, 1973), P. 84.

(١٠) Gouldner (1970), OP. Cit, P. 415.

(١١) Lbid., P. 495.